





# المراة في القرآن

عباس محمود العفاد



منظمة  
للطباعة والنشر والتوزيع





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

تدور مسألة المرأة في جميع العصور على جوانب ثلاثة ، تنطوى فيها جميع المسائل الفرعية التي تعرض لها في حياتها الخاصة أو حياتها الاجتماعية . وهذه الجوانب الثلاثة الكبرى هي :

( أولا ) صفتها الطبيعية ، وتشمل الكلام على قدرتها وكفايتها لخدمة نوعها وقومها ..

و ( ثانيا ) حقوقها وواجباتها في الأسرة والمجتمع .  
و ( ثالثا ) المعاملات التي تفرضها لها الآداب والأخلاق ومعظمها في شئون العرف والسلوك .

\* \* \*

وقد بحثنا هذه المسائل جميعا في رسائل مختلفة ولكننا نتناولها في هذه الرسالة لبيان موضعها من أحكام القرآن الكريم ، وخلاصة ذلك البيان في هذه المقدمة الموجزة أن آيات الكتاب قد فصلت القول في هذه الجوانب جميعا ، وكانت في كل جانب منها فصل الخطاب الذي لا معقب عليه إلا من قبيل الشرح والاستدلال بالشواهد المتكررة التي تتجدد في كل زمن على حسب أحواله ومدارك أبنائه

فالصفة التي وصفت بها المرأة في القرآن الكريم هي الصفة التي خلقت عليها ، أو هي صفتها على طبيعتها التي تحيا بها مع نفسها ، ومع ذويها ..

\* \* \*

والحقوق والواجبات التي قررهما كتاب الإسلام للمرأة قد أصلحت أخطاء العصور الغابرة في كل أمة من أمم الحضارات القديمة ، وأكسبت المرأة منزلة لم تكسبها قط من حضارة سابقة ، ولم تأت بعد ظهور

الإسلام حضارة تعنى عنها ، بل جاءت آداب الحضارات المستحدثة على نقص ملموس فى أحكامها ووصاياها ، لأنها أخرجت من حسابها حالات لا تهمل ولا يذكر لمشكلاتها حل أفضل من حلها فى القرآن الكريم ، إذا انتقل بها البحث من الإهمال إلى الدراسة والتدبير

\* \* \*

أما المعاملة التى حمدها القرآن وندب لها المؤمنين والمؤمنات ، فهى المعاملة « الإنسانية » التى تقوم على العدل والإحسان ، لأنها تقوم على تقدير غير تقدير القوة والضعف ، أو تقدير الاستطاعة والاكراه وفى الصفحات التالية تفصيل لهذا الإيجاز ، مداره على جلاء وجوه المطابقة التامة بين أحكام الكتاب الكريم وأحكام الواقع والمنطق والمصالح الإنسانية ..

**عباس محمود العقاد**

## الفصل الأول

### للرجال عليهن درجة

الانسان جنسان : هما جنس الرجال و جنس النساء .  
والجنسان سواء ، ولكن للرجال على النساء درجة :  
قال تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن  
درجة ، والله عزيز حكيم »

«سورة البقرة ٢٢٨»

وقال عز من قائل : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ،  
للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من  
فضله إن الله كان بكل شيء عليما »

«سورة النساء ٢٢»

ويلى ذلك من السورة نفسها :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما  
أنفقوا من أموالهم »

«سورة النساء ٢٤»

والقوامة هنا مستحقة بتفضيل الفطرة ، ثم بما فرض على الرجال من  
واجب الإنفاق على المرأة ، وهو واجب مرجعه إني واجب الأفضل لمن  
هو دونه فضلا . وليس مرجعه إلى مجرد إنفاق المال ، وإلا لامتنع الفضل  
إذا ملكت المرأة مالا يغنيها عن نفقة الرجل أو يمكنها من الإنفاق عليه .  
وحكم القرآن الكريم بتفضيل الرجل على المرأة هو الحكم البين من  
تاريخ بنى آدم ، منذ كانوا قبل نشوء الحضارات والشرائع العامة  
وبعد نشوئها . .

ففى كل أمة ، وفى كل عصر ، تختلف المرأة والرجل فى الكفاية والقدرة  
على جملة الأعمال الإنسانية ، ومنها أعمال قامت بها المرأة طويلا ، أو انفردت  
بالقيام بها دون الرجال

ومن قصور الفكر عند الداعين إلى قيام المرأة بجميع أعمال الرجل في الحياة العامة والخاصة ، أن يقال : إن المرأة إنما تخلفت في الكفاية والقدرة بفعل الرجل ونتيجة لأثرته واستبداده وتسخيره المرأة في خدمة مطالبه وأهوائه ..

فإن هذا انقول يثبت رجحان الرجل ولا ينفيه ، فما كان للرجال ، جملة • أن يسخروا النساء جملة في جميع العصور وجميع الأمم لو لا رجحانهم عليهن ، وزيادتهم بالمزية التي يستطيع بها التسخير ، ولو كانت مزية القوة البدنية دون غيرها •

\* \* \*

ومما يلاحظ أن أكثر القائلين بدعوة المرأة إلى انقيام بعمل الرجل ، جماعة الماديين الذين يردون كل قوة في الإنسان إلى قوة البنية المادية ، فإذا قيل إن قوة الجسد هي مزية الرجل على المرأة ، فليست هناك قوة أخرى تحسب في باب المفاضلة بين الجنسين

على أن الواقع أن الكفاية التي تمكن الإنسان من الغلبة على سائر الناس لم تكن قط من قبيل القوة الجسدية دون سائر القوى الإنسانية ، وكثيراً ما كان المتغلبون المتسلطون على من دونهم ، أضعف جسداً من الخاضعين لهم ، العاملين في خدمتهم • وكثيراً ما كانت قوة الحكم بمعزل عن قوة الأعضاء ، وصلابة التركيب • وأياً كان القول في هذا فإن الجنس لا يمتاز في جملته بقوة الجسد ، دون أن يرجع ذلك إلى فضل في التكوين يوجب الامتياز والرجحان

وإذا نظرنا إلى سوابق التسخير في تاريخ الإنسان ، تبين لنا أنه كان نصيباً عاماً لجميع الضعفاء الخاضعين للأقوياء المسطرين عليهم ، وكان نصيباً عاماً على الأقل لطوائف العبيد الذين خضعوا للأقوياء والضعفاء ، ممن كانوا يسمون بالأحرار تمييزاً لهم عن الأرقاء المستعبدين ، وقد نبغ من هؤلاء الأرقاء المستعبدين زمرة من الأدباء وأصحاب الفنون • كما نبغ منهم « سادة » يزاخمون الأحرار على أعمال الرئاسة والقيادة وينتزعون الحكم وهم غرباء عن البلاد التي يحكمونها • وهم في عددهم قلة ضئيلة ، بالقياس

إلى عدد النساء من الحرائر والإماء ، وهن نصف الجنس الإنساني أو يزيدن قليلا على حسب الإحصاء .



وفضل الرجال على النساء ظاهر في الأعمال التي انفردت بها المرأة ، وكان نصيبها منها أوفى وأقدم من نصيب الرجال . وليس هو بالفضل المقصور على الأعمال التي يمكن أن يقال إنها قد حجت عنها ، وحيل بينها وبين المرانة عليها ، ومنها الطهي والتطريز والزينة وبكاء الموتى وملكة اللهو والفكاهة التي اقترنت فيها السخرية بالسخر ، عند كثير من المضطهدين أفرادا وجماعات

فالمرأة تشتغل بإعداد الطعام منذ طبخ النابض طعاما قبل فجر التاريخ ، وتتعلمه منذ طفولتها في مساكن الأسرة والقبيلة ، وتحب الطعام وتشتهيه ، وتتطلب مشهياته وتوابله في أشهر الحمل خاصة ، كما تتطلب المزيد منه في أيام الرضاع ، ولكنها - بعد توارث هذه الصناعة آلاف السنين - لا تبلغ فيها مبلغ الرجل الذي يتفرغ لها بضع سنوات ، ولا تجاربه في إجادة الأصناف المعروفة ، ولا في ابتداع الأصناف والافتتان في تنويعها وتحسينها ، ولا تقدر على إدارة مطبخ يتعدد العاملون فيه من بنات جنسها أو من الرجال

وصناعة التطريز وعمل الملابس - كصناعة الطهي - من صناعات النساء القديمة في البيوت ، ولكنها تعوّل على الرجال في أزيائها ، ولا تعوّل فيها على نفسها ، وتفضل معاهد « التفصيل » التي يتولاها الرجال على المعاهد التي يتولاها بنات جنسها ، وكذلك تفضل معاهدهم على معاهد النساء في أعمال التجميل والزينة عامة . . ومنها تصفيف الشعر وتسريحه واختيار الأشكال المستحبة لتصفيره وتجميعه . وقد عنيت المرأة بألوان الطلاء منذ عرفت الزينة والتحلية الصناعية ، ولكنها لم تحسن من هذه الصناعة ما أحسنه الرجل في سنوات قصار ، حين اشتغل بتغيير الملامح لتمثيل الأدوار على المسرح ، أو حين اشتغل بتغيير الملامح للتمثيل والاستطلاع ، وقد كان

هذا التفوق في صناعة « التتكر » أولى بالمرأة لطول عهدها بفنون المداراة  
والحجاب

\* \* \*

وتنوح المرأة على موتها ، وتتخذ النواح على الموتى صناعة لها في  
غير مآتمها ، ولم تتوَكَّر عن النساء قط في لغة من اللغات مرثاة تضارع  
المراثى التى نظمها الرجال ، ولا تظهر فى « مراثيهن » مسحة شخصية  
تترجم عن النفس وراء الكلمات والمرددات المتواترة التى تقال فى كل  
مآتم ، وفى كل وفاة وتنقل محفوظة كما تنقل مرتجلة من نظم قائلتها فى  
فجيعتها التى تعنيها ولا تعنى غيرها ، كأنها الأصوات التى تترجم عن  
غرائز الأحياء على نحو واحد فى الحزن والألم أو فى الشوق والحنين .  
والملاهى - ولا سيما ملاهى الرقص والغناء - من ضروب التسلية  
التي يتسع لها وقت المرأة فى الخدور ، وفى البيوت التى لا تحسب من  
الخدور ، وقد شجعها الرجال عليها وجعلوها من فنون التربية النسوية  
التي تروقهم منها ولكن الأستاذية فى الرقص المفرد وفى رقص الجنسين ،  
لم تكن من حظ المرأة فى العصر الحديث ولا فى العصور القديمة ، ولم  
يزل عمل المرأة فى الرقص أقرب إلى التنفيذ منه إلى الابتكار والابتداء  
ومن اللهو الذى كان خليقا بالمرأة أن تحذقه وتتفوق فيه على الرجال ،  
لهو الفكاهة والنكتة المضحكة ، لأنها تحب أن تمرح وتلعب ، ولأنها  
تشعر بالضغط وبال الحاجة إلى التنفيس عن الشعور المكبوح . وقد عرف  
من طبائع النفس البشرية أن ضحايا الضغط والاستبداد يلجأون إلى  
السخر لرد غوائل الظلم التى لا يقدررون على ردها بالقوة ، وإن المتعرضين  
لضرورات الخضوع والإذعان يقضون حق « التمرد » بالمزاح حيث لا يتاح  
لهم أن يقضوه بالجد والمقاومة ؛ ولكن المعهود فى المرأة أنها قليلة الفطنة  
للكتة ، إلا فى الندرة التى تحسب من الفلتات العارضة ، وأنها لا تحسن  
أن تقابل نكات الرجال بمثلها مع كثرة النكات التى تصيها فى أنوثتها ،  
فضلا عن سبقها لهم وامتيازها فى هذا الباب عليهم ، لأنها خليقة أن  
تحس من ضغط الاستبداد ما لا يحسه جمهرة الرجال .

\* \* \*

وليس بالمجهول أن النساء قد نبغن من قبل ، وينبغن الآن في طائفة من الأعمال التي يضطلع بها الرجال ، وقد اشتهر منهن الملكات وقائدات العسكر ، واشتهر منهن الباحثات والخطيبات كما اشتهر منهن الصالحات الممتازات في شئون الدين والدنيا ، وشمائل الفضائل والأخلاق ، وقد تكون منهن من تفوق جمهرة الرجال في بعض هذه الأعمال . ولكن فضائل الأجناس لا تقاس بالنصيب المشترك ، بل تقاس بالنعاية التي لا تدرك ، ولا تؤخذ بالاستثناء الذي يأتي من حين إلى حين ، بل بالقاعدة التي تعمم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد في أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجرى الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم في جميع الأحوال ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لا يبد منه في كل تعميم

وعلى هذا يمكن أن يقال إن « الاستثناء » يحمل في أطوائه دلائل القاعدة التي يخالفها ، ولا يخلو من ناحية تعزز القاعدة الغالبة ولا تنفيها إن اسم السيدة « ماري كورى » أول الأسماء التي يذكرها القائلون بالمساواة التامة بين الجنسين ، ولو صح ان هذه السيدة تضارع علماء الطبقة الأولى من الرجال لما كان في هذا الاستثناء النادر ما ينفي أنه استثناء نادر ، وان القاعدة العامة باقية لم تنقض ولا ينقضها تكرار مثله من حين إلى حين

إلا أن الواقع أن حالة هذه السيدة خاصة بعيدة من أن تحسب بين حالات الاستثناء في مباحث العلم أو في المباحث العقلية على الإجمان . لأنها لم تعمل مستقلة عن زوجها ، ولم يكن عملها من قبيل الاختراع والابتداع ، وإنما كان كله من قبيل الكشف والتنقيب . قالت بنتها « ايف » في ترجمتها : « إن نصيحة بيير كان لها في هذه المرحلة الدقيقة شأن لا يغضى عنه ، وإنما كانت الفتاة تنظر إلى زوجها نظرة التلميذ إلى معلمه ، إذ كان أقدم منها دراسة للعلوم الطبيعية ، وأطول منها خبرة ودراية ، وقد كان عدا ذلك رئيسها بل مستخدمها . غير أنها بمزاجها

وطبيعتها قد كان لها ولا شك فضلها في هذا الاختيار ، فإن البنت البولونية قد انطوت منذ طفولتها على ملكة التطلع والجرأة التي ينطبع عليها المستكشف ، وكانت هذه الملكة هي التي حفزتها إلى الشغوص من وارسو إلى باريس والسوربون .

\* \* \*

والواضح أن ملكة المستكشف على أرقاها وأتمها لا ترتقى في القدرة العقلية إلى منزلة الاختراع والافتتاح . فإنما هي امتداد لعمد الحس والبحث بالعنين ، ينتهى بطول المراقبة إلى رؤية الشيء الذى لا يرى بالعين لأول وهلة ، وقصاره أنه صبر على النظر ، ثم إدمان النظر ، إلى أن ينكشف الشيء الذى لا بد أن ينتظر بعد طول المراقبة في وقت من الأوقات . وقد كان العالم بيكرل Bequerel يبحث في إشعاع عنصر « الأورانوم » قبل أن تبحث فيه السيدة كورى مع زوجها وأستاذها ، وبني كلاهما بحثه على تقرير بيكريل ، فوصلا إلى الوجهة التي اتجه إليها من قبل فأحسنا الاتجاه ، وإن لم يكن لهما فضل التوجيه .

والحق أنه لما يؤسف له من آفات العصر الحديث زيغ التفكير الاجتماعى في مسائل الإنسان الجلى كهذه المسألة الخالدة : مسألة التفرقة بين الجنسين في الكفاية والوظيفة ، وعلاماتها البينة أشد البيان في الحاضر وفي سوابق التاريخ . فإن هذه المسألة الخالدة لتجمع بين الشمول المستفيض وبين العمق المتأصل ، بحيث لا تقبل اللبس ، ولا تدع للناظر أن يطيل التردد حول مقطع الرأى فيها ، لولا فتنة العصر بمخالفة القديم على هدى) وعلى غير هدى في كثير من جلائل الأمور .

\* \* \*

فليست شواهد التاريخ وشواهد الحاضر المستفيضة ، بالظاهرة الوحيدة التي تقيم الفارق الحاسم بين الجنسين : إذ لا شك أن طبيعة تكوين الجنس أدل من الشواهد التاريخية والشواهد الحاضرة على القوامة الطبيعية التي اختص بها الذكور من نوع الإنسان ، إن لم تقل من جميع الأنواع التي تحتاج إلى هذه القوامة . فكل ما في طبيعة الجنس

« الفزيولوجية » في أصل التركيب يدل على أنه علاقة بين جنس يريد ، وجنس يتقبل ، وبين رغبة داعية ورغبة مستجيبة ، تتمثلان على هذا النحو في جميع أنواع الحيوان التي تملك الإرادة وترتبط بالعلامة الجنسية وقتاً من الأوقات ..

وعلى وجود الرغبة الجنسية عند الذكور والإناث لا تبدأ الأنثى بالإرادة والدعوة ، ولا بالعراك للغلبة على الجنس الآخر ، وليس هذا مما يرجع في أصوله إلى الحياء الذي تفرضه المجتمعات الدينية ، ويزكيه واجب الدين والأخلاق ، بل يشاهد ذلك بين ذكور الحيوان وإناثها ، حيث لا يعرف حياء الأدب والدين . فلا تقدم الإناث على طلب الذكور بل تتعرض لها لترها وتتبعها وتسيطر عليها باختيارها ، ولا تزال الأنثى بموقف المنتظر لنتيجة العراك عليها بين الذكور ، ليظفر بها أقدرهم على انتزاعها

وأدل من ذلك على طبيعة السيطرة الجنسية أن الاغتصاب إذا حصل ، إنما يحصل من الذكر للأنثى ولا يتأتى أن يكون هناك اغتصاب جسدي من أنثى لذكر ، وإن غلبة الشهوة الجنسية تنتهي بالرجل إلى الضراوة والسطوة ، وتنتهي بالمرأة إلى الاستسلام والغشمية ، وأعمق من ذلك في الإبانة عن طبيعة الجنس ، أن عوارض الأنوثة تكاد تكون سلبية متلقية في العلامات التي يسمونها بالعلامات الثانوية . فإذا ضعفت هرمونات الذكورة وقلت إفرازاتها بقيت بعدها صفات الأنوثة غالبية على الكائن الحي كائناً ما كان جنسه ، ولكن صفات الذكورة لا تأتي وحدها إذا ضعفت هرمونات الأنوثة : وإنما يظهر ما كان يعوقه عائق عن الظهور .

\* \* \*

ومن الاختلافات الجسدية التي لها صلة باختلاف الاستعداد بين الجنسين أن بنية المرأة يعترها الفصد كل شهر ، ويشغلها الحمل تسعة أشهر ، وإدرار لبن الرضاع حولين قد تتصل بما بعدهما في حمل آخر ، ومن الطبيعي أن تشغل هذه الوظائف جانباً من قوى البنية ، فلا تساوى الرجل في أعماله التي يوجّه إليها بنية غير مشغولة بهذه الوظائف الأنثوية . وينبغي أن تظهر هذه الحقيقة بغير مشقة عند الموازنة بين استعداد

البينتين ، وأخرى أن تكون ظاهرة مفهومة عند الذين يدينون بالآراء المادية ، ويربطون بين قوى الجسد وكل قوة باطنية أو ظاهرة في الإنسان وسائر الأحياء ، وليس من اللازم أن يتعلق الاختلاف بالحالة التي تشتغل فيها بنية المرأة بتلك الوظائف والأعمال فعلا ، لأن الاستعداد لها مركب في الطباع ، معقود بتكوين الخلايا الدقيقة ، فضلا عن الجوارح والأعضاء ، بل من الطبيعي أن يكون للمرأة تكوين عاطفى خاص لا يشبه تكوين الرجل لأن ملازمة الطفل الوليد ، لا تنتهى بمناولته الثدي وإرضاعه ، ولا بد معها من تعهد دائم ومجاوبة شعورية تستدعى شيئا كثيرا من التناسب بين مزاجها ومزاجه ، وبين فهمها وفهمه ، وبين مدارج حسها وعطفها ومدارج حسه وعطفه ، وهذه حالة من حالات الأنوثة شوهدت كثيرا في أطوار حياتها منذ صباها الباكر إلى شيخوختها العالية ، فلا تخلو من مشابهة للطفل في الرضى والغضب ، وفي التدليل والمجافاة ، وفي حب الولاية والحدب ممن يعاملها ولو كان في مثل سنها أو سن أبنائها . وليس هذا الخلق مما تصطنعه المرأة وتتركه باختيارها ، إذ كانت حضانة الأطفال تنمة للرضاع ، تقترن فيها أدواته النفسية بأدواته الجسدية ، ولا تنفصل إحداهما عن الأخرى . ولا شك أن الخلائق الضرورية للحضانة وتعهد الأطفال الصغار أصل من أصول اللين الأنثوى ، الذى جعل المرأة سريعة الانقياد للحس ، والاستجابة للعاطفة ، يصعب عليها ما يسهل على الرجل من تحكيم العقل ، وتغليب الرأى ، وصلابة العزيمة . فهما ولا شك مختلفان في هذا المزاج اختلافا لا سبيل إلى الممارسة فيه



وبعض هذه الفروق في استعداد الجنسين كاف لشرح معنى « الدرجة » التى تميز الرجل على المرأة في حكم القرآن الكريم . فهو معنى أقرب إلى الوصف المشاهد منه إلى الرأى الذى تتعدد فيه المذاهب ، فلا يعدو تقرير الواقع من يرى أن الجنسين سواء فيما لهما وما عليهما ، إلا درجة يمتاز بها الجنس الذى يملك زمام الحياة الجنسية بحكم الطبيعة والتكوين . .

## الفصل الثاني

### من الأخلاق

جاء وصف النساء بالكيد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، مرتين على لسان يوسف عليه السلام ، ومرة على لسان العزيز « في سورة يوسف »

« قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » (آية ٣٣)

« وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » (آية ٥٠)

« فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » (آية ٢٨)

والكيد صفة مذكورة في مواضع كثيرة من القرآن ، بعضها منسوب إلى الإنسان وبعضها منسوب إلى الشيطان ، ومن الرجال الذين نسبت إليهم صالحون مؤمنون ، ومنهم كفرة مفسدون ، بل وردت وصفا لله سبحانه وتعالى مع المقابلة بين الكيد الإلهي وكيد المخلوقات ، وبغير مقابلة في آيات ٠٠

ويدخل في الكيد صفات كثيرة تمدح وتذم ، وتطلب وتمنع ، تشترك كلها في معاني التدبير والمعالجة والحيلة ، وقد يجمع الحميد والذميم منها قولهم : « الحرب مكيدة » لأنها تدبير ومعالجة وحيلة تتطلبها مواقف القتال ، وقد تذم أحيانا في هذه المواقف ، كما تذم في سواها وقد جاء وصف الكيد في سورة يوسف نفسها منسوبا إلى إخوة يوسف إذ جاء فيها على لسان يعقوب عليه السلام :

« قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ،

إن الشيطان للإنسان عدو مبين » (آية ٥) .

وجاء منسوباً إلى الله تعالى بمعنى التدبير :

« فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ آخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ آخِيهِ •  
كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »  
«آية ٧٦»

أما الكيد الذى وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها ، فهو كيد يعهد  
فى المرأة ولا ينسب إلى غيرها ، أو هو كيدهن الذى يتكسمن به ويصدر عن  
خلاتقهن وطبائعهن ، كما يفهم من الإضافة المتكررة فى الآيات الثلاث ،  
ويدل عليه عمل امرأة العزيز فيما غشيت به زوجها ، واحتالت له من  
مراودة غلامها عن نفسه ، ثم من اتهامه بمراودتها وتنصلها من فعلها •  
وكلها أعمال تتلخص فى « الرياء » أو فى إظهار غير ما تبطنه  
واحتيالها للدس والإخفاء •

\* \* \*

والرياء صفة عامة تشاهد فى كثير من المستضعفين من الرجال والنساء ،  
وأسبابه الاجتماعية تحدث لكل ضعيف يقهره غيره ، فلا يخص المرأة  
دون الرجل ، ولا ينحصر بين فئة من الناس دون فئة • وقد يحدث  
للحيوان الضعيف ويلجئه إلى المراوغة والملق ، وهو لا يتكلف لذلك كما  
يتكلف الإنسان الذى يفكر فيما يعمل وفيما يقصد إليه

وينسب رياء المرأة إلى الضرورات التى فرضها عليها الضعف فى حياتها  
الاجتماعية أو حياتها البيئية ، وقد يظهر فيها على نحو يناسبها حتى  
يتلبس بالبواعث الأنثوية المقصورة عليها . فلا تختص به فى أصوله إذ  
كانت أصوله من الضعف الذى يشاركها فيه جميع الضعفاء ، وإنما  
تختص به لأن بواعثها الأنثوية مقصورة على جنسها

إلا أن « الرياء » الأنثوى الذى يصح أن يقال فيه إنه رياء المرأة  
خاصة ، إنما يرجع إلى طبيعة فى الأنوثة تلزمها فى كل مجتمع ، ولا تفرضه  
عليها الآداب والشرائع ، ولا يفارقها باختيارها أو بغير اختيارها ، بل لعلها  
هى تأبى أن يفارقها لو وكل إليها الاختيار فيه .

فمن أصول هذا الرياء فى تكوين الأنثى أنها مجبولة على التناقض

بين شعورها بغريزة حب البقاء ، وشعورها بغريزتها النوعية • فهي تتعرض للخطر على الحياة وتفرح بوفاء أنوثتها في وقت واحد ، وهي إذ تضع حملها تتألم أشد الألم وتمانى جزع الخشية على حياتها حين تخامرها وتسرى في كيانها غبطة الأم التي أتمت وجودها وتوجت حياتها الجنسية . بأعز ما تصبو إليه وتتمناه ، ويستوى كيانها كله على أن تفرح وهي تتألم وتتألم وهي تفرح ، فلا يستقيم شعورها خالصا من النقيضين في أعماق وظائفها التي خلقت لها ، ومثل هذا التناقض يلازم عواطفها جميعا فيما هو دون ذلك من نزعتها وأهوائها •

\* \* \*

ومن أصول هذا الرياء في تكوينها ، أنها مجبولة كذلك على التناقض بين شعورها بالثخصية الفردية ، وشعورها بالحب والعلاقة الزوجية ، فهي كجميع المخلوقات الحية ذات « وجود شخصي » مستقل تحرص عليه ، وتأبى أن تنغيه أو تتخلى عن ملامحه ومعالم كيانه ، وهي في حوزتها « الشخصية » مدفوعة إلى صد كل افتيات يذرها بالفناء في شخصية أخرى ، ولكنها في أشد حالات الوحدة لا تتوق إلى شيء كما تتوق إلى الظفر بالرجل الذي يغلبها بقوته ويستحق منها أن تأوى إليه ، وتلحق وجودها بوجوده ، وأسعد ما تكون في حبها أو في علاقتها الزوجية إذ يملكها الرجل الذي يفوقها بالقدرة المطاعة والعزيمة النافذة ، ونتيجة المقاومة عندها أن تجمع بين الانتصار والخذلان في لحظة واحدة • فهي منتصرة حين تظفر بالرجل الذي يغلبها ويستولى عليها •

وشبيه بهذا التناقض مع اختلاف أسبابه ، أن الرغبة الجنسية عندها تنفصل عن الغريزة النوعية في معظم أيامها • فليست الرغبة الجنسية - بحكم الطبيعة - عبثا في وقت من الأوقات عند الرجل ، ولكنها عبث عند المرأة في أوقات حملها وفي غير أوقات الحمل من أيام دوراتها الشهرية • وقد عوفيت أنثى الحيوان من هذا العبث لأنها إذا حملت صدت عن الذكر وصد الذكر عنها ، ولكن المرأة التي تحس أنها عبثة في أحق الوظائف النوعية بالجد والمبالاة ، يختلط عندها العبث بالجد

والسرور المقيم بالوظيفة الطبيعية . وقد تقضى بعد سن اليأس زمنا يحكما فيه هذا العبث الذي لا نظير له في حياة الرجولة

\* \* \*

وحب الزينة أصل من أصول الرياء يشاركها فيه الرجل في ظاهر الأمر ، ولكنه يخصصها في جانب غير مشترك بينها وبين زينة الرجولة . . فإن الرجل يتزين ليعزز إرادته ، وإنما تتزين المرأة لتعزز إرادة غيرها في طلبها . وزينة المرأة كافية إذا راققت بمنظرها الظاهر في عين الرجل ، ولكن زينة الرجل تجاوز ظاهره إلى الدلالة على قوته ومكانته وكفايته لمؤنة أهله ، وليست الزينة التي تتراد للاغراء بالقبول كالزينة التي تتراد للاغراء بالطلب ، فإن الفرق بينهما هو الفرق بين الإرادة والانقياد ، وبين من يريد ومن يفتن أن يتراد . .

\* \* \*

وجملة القول أن الرياء على عمومها هو إظهار غير ما في الباطن ، وهو حالة تعرض للرجال والنساء في الحياة الجنسية وغير الحياة الجنسية ، ولكن الأنوثة تختص بلون منه ، لأنها إذا لجأت إليه فإنما تلجأ إليه اضطرارا لأن من خلقها ألا تظهر كل ما في نفسها ، وإن كان من الأمور الطبيعية التي لا إثم فيها ولا مخالفة بها لوظيفتها

## الفصل الثالث

### هذه الشجرة

قصة الشجرة المنوعة التي أكل منها آدم وحواء ، هي الصورة الإنسانية لوسائل الذكر والأنثى في الصلة الجنسية بين عامة الأحياء الرجل يريد ويطلب ، والمرأة تتصدى وتغرى • وتتمثل في القصة بداهة النوع في موضعها ، أى حيث ينبغى أن تتمثل أول علاقة بين اثنين من نوع الإنسان ••

وقد ذكر في القرآن الكريم قصة الأكل من الشجرة في ثلاثة مواضع من سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة طه  
ففى سورة البقرة :

« وقتلنا يا آدم اسكن أنتَ وزوجك الجنةَ وكُلا مِنها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلَّهُما الشيطان عنها فأخرجهُما ممَّا كانا فيه » « آية ٣٥ ، ٣٦ »  
وفي سورة الأعراف :

« • • • يا آدم اسكن أنتَ وزوجك الجنةَ فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فوسوس لهُما الشيطان ليبيد لهما ما وورىَ عنهما من سواتهما ، وقال ما نهاكُما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين »  
« آية ١٩ ، ٢٠ »  
وفي سورة طه :

« فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومثلك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخسفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى •• »  
« آية ١٢٠ ، ١٢١ »

وليس في هذه الآيات من السور الثلاث إشارة إلى ابتداء حواء بالإغراء ، أو بالكيد على ما جاء في سورة يوسف ، ولكن بعض المفسرين

ذكر ذلك في شرح الآيات معتمدا على أقوال حفاظ التوراة من بنى إسرائيل الذين دخلوا في الإسلام ، فقال الطبري من المفسرين الأقدمين نقلا بالإسناد عن وهب بن منبه :

« .. لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ، ونهاهما عن الشجرة .. أراد إبليس أن يستزلهما فدخل في جوف الحية .. فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فجاء به إلى حواء فقال : انظري إلى هذه الشجرة ! ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فأخذت حواء فأكلت منها ، ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت : انظر إلى هذه الشجرة : ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فأكل منها آدم . فبذت لهما سواتهما ، فدخل آدم في جوف الشجرة ، فناداه ربه : يا آدم ! أين أنت ؟ قال : أنا هنا يارب ! قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحي منك يارب .. ثم قال ربه : يا حواء . أنت التي غررت عبدي ، فإنك لا تحملين حملا إلا حملته كرها ، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارا ، وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي . ملعونة أنت لعنته .. ولا يكون لك رزق إلا التراب .. أنت عدوة بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك .. »

\* \* \*

وقال الألوسي صاحب « روح المعاني » من المفسرين المحدثين : « وقيل بينما هما يتسرجان في الجنة إذ راعهما طاووس تجلى لهما على سور الجنة ، فدفنت حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجدار . وقيل توسل بحية تسورت الجنة ، والمشهور حكاية الحية . وهذان الأخيران يشير أولهما عند ساداتنا الصوفية إلى توسله من قبل الشهوة خارج الجنة وثانيهما إلى توسله بالغضب .. »

ومرجع هذا الشرح كما هو ظاهر ، قصة التوراة التي حفظها وهب ابن منبه ، ورواها لصحبه من المسلمين بعد دخوله في الإسلام ، ونصها كما جاءت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين :

« وكانت الحية أحيى جميع حيوانات البرية . . . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكل من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكل منها ولا تمسها لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل . وأنها بهجة للعيون . وأن الشجرة شهية للنظر . وأخذت من ثمرها وأكلت ، وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، وانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . فخاطبا أوراق تين ، وصنعا لأنفسهما مآزر ، وسمعا صوت الرب الإله ما شيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة ، فنادى الرب الإله آدم ، وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة ، فخشيت لأنى عريان واختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم :

المرأة التى جعلتها معى هى أعطتني من الشجرة : فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائللا لا تأكل منها - ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكا وحسكا تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك . . . تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب ، وإبنى تراب تعود . . . »

وعلى هذا المرجع من التوراة اعتمدت كتب العهد الجديد حيث جاء فى الإصحاح الحادى عشر من كتاب كورنثوس الثانى :